

الخطاب العربي والتلقي

اسماء نادر الأحمد

(باحثة بسلك الدكتوراة جامعة محمد الخامس)

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١ أكتوبر ٢٠٢٤ م

الملخص:

إن ما يميز الخطاب هو هذا التنوع الذي يتضمنه من كفايات تعبيرية ولغوية، واستثماره للمتخيل والرمز والإيديولوجيات المختلفة من خلال الانفتاح على ما هو اجتماعي، والذي يشكل المتلقي فيه عنصراً مهماً لا يمكن فصله عنه، لدرجة أنه صار في كل الخطابات الحديثة مشاركاً في العمليات التخاطبية الإبداعية والفنية من خلال إعادة نسج خيوطها، وتجاوز ذلك إلى إحداث فوضى في ترتيبها مما جعل منه بنية مفتوحة في تطور دائم، ينفلت من كل التحديدات، ويخرق كل التنظيرات.

لقد حظي مفهوم الخطاب باهتمام الدراسات الحديثة، سواء عند العرب أو عند الغرب؛ فمنها ما هو لغوي لساني، ومنها ما هو فلسفي وديني ... الخ، مما يدل على تعدد زوايا هذا المفهوم، فهو يتحول بتحول السياق، والموضوع الذي يشتغل عليه، إذ "لا يعرف الخطاب سوى نفسه (سياقه) وسوى موضوعه وتعبيره المباشر، ولغته... كل خطاب آخر موضوع خارج سياقه الخاص، ما هو إلا كلام محايد (لا يرجع لأي أحد)" ومنه يمكن أن نخلص إلى أن:

الموضوع + السياق = الخطاب

الكلمات المفتاحية : (الخطاب – التلقي – السياق – اللسانيات – الحدث – الخطاب)

ذلك لأن الخطاب لا يمكن له أن يوجد في انفصال عن الموضوع أو السياق إلى درجة أنه يعتبر "بمثابة حدث: أي أن شيئاً ما يحدث عندما يتكلم أحدنا، وتفرض هذه النظرية، نظرية الخطاب كحدث" ٢ وهو ما سنجد مع اللساني الفرنسي "إميل بنفنيست" الذي ذهب إلى الأبعد في هذا الاتجاه. فبالنسبة إليه، "تنهض لسانيات الخطاب ولسانيات اللغة على وحدات مختلفة، فإذا كانت العلامة (الصوتية والمعجمية) وحدة أساس اللغة فإن الجملة هي وحدة أساس الخطاب" ١ هذا لا يعني أن الخطاب نشأ في خضم اللسانيات، بل هناك آراء متضاربة حول تحديد منبعه، وهو ما جاء على لسان الباحث "ألفا أزمان بري Alpha Ousmane BARRY" حين قال: "إن إشكالية الخطاب لم يتحدث عنها الدرس اللساني" فرناند ديسوسير" الذي يحصر حفل اللسانيات في دراسة اللغة باعتبارها (نسقا من الرموز)" وهذا ما أشار له الباحثان "باتريك شارودو- دومينيك منغو- Patrick Charaudeau" Dominique Maingueneau في معجمهما "معجم تحليل الخطاب Dictionnaire d'Analyse du Discours" في إطار حديثهما عن نشأة هذا المفهوم، إذ "لم ينشأ تحليل الخطاب داخل علوم اللغة عن فعل مؤسس، ولكنه أتى من التقاء تيارات منطلقاتها شديدة الاختلاف ظهرت في أوروبا وأمريكا في الستينيات، ولا يزال الالتقاء يتطور يوما بعد يوم؛ وكلها تدور على دراسة الإنجازات المتجاوزة للجملة، شفوياً كان الإنجاز أو مكتوباً."

فالخطاب ليس نتيجة للدرس اللساني الذي يهتم بدراسة اللغات الطبيعية، بل يختلف في "اللغات الطبيعية من حيث حجمه، فيرد جملة أو سلسلة من الجمل أو نصا متكاملا كما يختلف من حيث نمطه فيكون خطابا سرديا أو خطابا وصفيا أو خطابا حجاجيا أو خطابا فنيا أو خطابا علميا إلى غير ذلك من الأنماط الخطابية المعرفية".

فالخطاب يتفرع إلى مجموعة من الأنواع بحسب السياق والموضوع الذي يشتغل عليه، فهو يضم أنواعا متعددة من الخطابات من مثل: الخطاب الشعري والنثري والديني... وإن كان الخطاب يتعدد بتعدد العناصر المشكلة له، فهو يرتبط بعنصر مهم يشكل جزءا منه، إنه المتلقي الذي بدوره لا يمكن للخطاب أن يتحقق، فالمتلقي والخطاب وجهان لعملة واحدة، ونظرية التلقي التي لا يمكن أن نقول قد جاء بها الرائد الكونستانسي "هانز روبرت ياكوس Hans Robert Jauss" بل نعتزف أنه من الأوائل الذين سموها نظرية وهذا راجع لحظورها في سياقات عند العرب وغيرهم خاصة في مراعاة مقتضى الحال وتلقي الشعر وأسباب النزول والتفسير حتى وإن غاب عنهم التأسيس لمفاهيمها الإجرائية كما نلاحظ عند أقطاب مدرسة كونستونس الألمانية إذ ركزت على هذه الإزدواجية بين الخطاب والمتلقي، وبشكل أدق يمكن أن نلمس ذلك في العملية التواصلية، التي تتكون من المرسل والمرسل إليه؛ إذ أن الأول ينتج الخطاب والثاني يتلقاه وفي مرحلة متقدمة مع "هانز روبرت ياكوس Hans Robert Jauss" و"فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser" وكادامير Gadamer أصبح المتلقي بدوره ينتج خطابا خاصا به من خلال عملية ملء الفراغات أو ما يسمى بجمالية الفجوات التي تتركها الكتابة. إذ يتبين أن العلاقة القائمة بين الخطاب ومتلقيه إلزامية، وهو ما سنلاحظه من خلال هذه المقالة المتواضعة.

فبناء على ما سبق صار لزاما علينا طرح إشكالات تهم الخطاب، والتلقي، وكيفية الربط بينهما. هناك مجموعة من الأسئلة تفرض علينا نفسها، سنحاول الإجابة عنها، وذلك لما لهذه القضية من تشعبات، وزوايا تتناثر بين ما هو نظري وتطبيقي. يمكن الإشارة إليها في مقال آخر أو بفتح الباب أمام باحثين آخرين.

وسيكون ذلك من خلال تقديم خصائص الخطاب أولا، والتلقي ثانيا مع محاولة الربط بين هذه المفاهيم، هذا سيكون الجانب.

فكما سبق أن أشرنا لا يمكن أن نخفي أن الخطاب مفهوم زئقي هلامي لا يمكن القبض عليه من زاوية واحدة، فقد تعددت تعاريفه وتنوعت بتنوع المجالات التي يشتغل عليها وباختلاف الدراسات التي اعتمدته ووفق السياق الذي ورد فيه، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر "بول ريكول Paul Ricoeur" الذي يعرف الخطاب باعتباره "حدث، أي أن شيئاً ما يحدث عندما يتكلم أحدنا، وتفرض هذه النظرية، نظرية الخطاب كحدث، نفسها بمجرد ما نأخذ بعين الاعتبار العبور من لسانيات الكلام أو الرموز، إلى لسانيات الخطاب أو الإرسالية. ومصدر التمييز كما نعلم هو "فردناند دوسوسير" و "لوى يلمسليف"، يميز الأول بين الـ"لغة" و الـ"كلام"، والثاني بين الـ"تصور" والـ"استعمال". من هذه الثنائية نستنتج نظرية الخطاب" وانطلاقاً من هذا التعريف يتضح بأن بول ريكول اعتبر الخطاب نتيجة للدرس اللساني، وهو ما أشار له "غاردينار" (١٩٣٢/١٩٨٩) حين أقر بأن الخطاب هو "الاستعمال بين الناس لعلامات صوتية مركبة لتبليغ رغباتهم أو آرائهم في الأشياء"

أما "مشال فكو" يشير إلى أن ما يمكن تسميته خطاباً "هو مجموعة ملفوظات تنتمي إلى نفس التشكيل الخطابي" والمقصود بذلك أنواع الخطابات المتشاكلة، كقولنا خطاب صحفي، ومدرسي، وتلفزيوني... وأنواع أخرى خاصة بمتكلمين مخصصين، من مثل خطاب الممرضات والعائلات... ومنه يمكن القول أن لفظ الخطاب يتردد بالاقتران بوصف آخر، وهو ما يبرهن لنا سبب تعدد التعريفات؛ لأن الخطاب فعل "يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية، وليس في هذا تشتيت بقدر ما فيه من غنى وسعة في التصنيف، وقد ورد مفهوم الخطاب عند العرب قديماً، كما قد ورد عند الغربيين مع درجات من التفاوت أو الاقتراب في معناه"

والثقافة العربية تداولت مفهوم الخطاب، منذ بداية نزول الذكر الحكيم على سيدنا محمد صلى الله عليه والسلام، إذ ورد بصيغ متعددة، من بينها صيغة الفعل في قوله تعالى: { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } والمصدر في قوله تعالى: { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَانُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } وفي قوله تعالى عن داود عليه السلام: { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ } ففي هذه الآية أتى لفظ الخطاب "اسم دال على الكلام وهو في الأصل مصدر سماعي للرباعي خاطب وزنه فعال بكسر الفاء" "فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ... وهو كلامه في القضاء والحكومات وتدابير الملك والمشاورات"

كما انه ورد عند النحاة باسم المفعول في قولهم (المُخَاطَبُ) لدلالة على طرف الخطاب الآخر، الذي يوجه المرسل كلامه إليه، وذلك في نطاق حديثهم عن المضمرات ومنه قول "ابن يعيش" في شرحه "والمضمرات لا لبس فيها، فاستغنت عن الصفات؛ لأن الأحوال المقترنة بها قد تغني عن الصفات، والأحوال المقترنة بها: حضور المتكلم والمخاطب والمشاهدة لهما، وتقدم ذكر الغائب الذي يصير به بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم... ثم المخاطب والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة" هذا لأن ذكر طرفي الخطاب كفي في عملية إيصال المعنى .

ومنه كذلك ما جاء على لسان "الزمخشري" في معجمه (أساس البلاغة): "خطب خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام، وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية، فيقول خطب واختطب القوم فلان، فدعوه إلى أن يخطب إليهم، ونقول له: أنت الأخطب البين الخطبة، فتخيل إليه أنه ذو البيان في خطبته"

تبعاً لما سبق، يمكن الجزم أن مفهوم الخطاب ليس دخيلاً على الثقافة العربية، بل ورد بصيغ مختلفة سواء في القرآن الكريم أو في علوم أخرى كعلم النحو والصرف وأصول الفقه والبلاغة... بحسب ما يقتضيه السياق، كما أن الدراسات العربية الحديثة وظفت مفهوم الخطاب بمعناه الحديث، إذ استقتته من الدراسات الغربية الحديثة ومن نظريات الخطاب عند هاريس ومشال فكو

بيد أن هناك من يشير إلى أن مفهوم الخطاب في الدراسات الحديثة لم ينشأ مع الدرس اللساني، وعلى رأسهم الباحث الكندي "ألفا أوزمان باري Alpha Ousmane Barry" حين أقر في مقال له عنوانه ب: "الأسس النظرية لتحليل الخطاب LES BASES THÉORIQUES EN ANALYSE DU DISCOURS" بأن الدرس اللساني لـ"فردناند دوسوسير Ferdinand de SAUSSURE" لم يكن أول من طرح نظرية الخطاب، وذلك لأنه اشتغل على اللغة باعتبارها نسقاً من الرموز système de

singes بعيدا عن كونها خطابا، وهو ما أشار إليه الباحثان "باتريك شارود" و"دومينيك منغنون" Patrick Charaudeau- Dominique Maingueneau في معجمهما "معجم تحليل الخطاب" Dictionnaire d'Analyse du Discours إذ وافقا رأي "ألفا" أوزمان باري Alpha Ousmane "Barry على أن الخطاب لم يكن منبعه من اللسانيات.

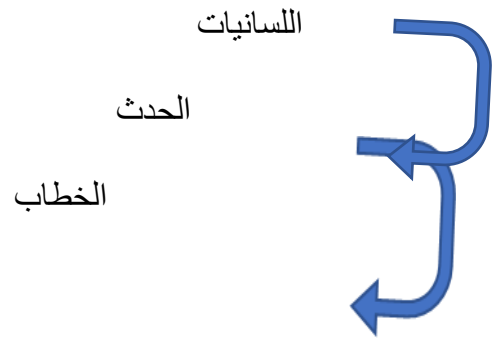
ويدافع "بول ريكول" عن موقفه الذي ينتصر فيه للدرس اللساني، لا اعتباره أول من تحدث عن الخطاب، من خلال تمييزه بين لسانيات الكلام، ولسانيات الخطاب، وهذه الأخيرة هي التي تجعل اللغة تلحق بالخطاب "وتتجاوز نفسها كنسق، وتتحقق كحدث، وبدخول الخطاب في تقدم الفهم، يتجاوز الخطاب نفسه بصفته حدثا في الدلالة"، وهو ما جاءت به نظرية "فعل الكلام" (Speech-Act) "التي سنجدتها عند "أوستين" و"سورل" اللذان يعتبران أن فعل الخطاب يقوم "على تراتبية أفعال تابعة موزعة على مستويات ثلاثة:

١ - مستوى الفعل التعبيري أو الافتراضي: فعل القول

٢ - مستوى الفعل (أو المفعول) اللاتعبري: ما نفعله قولا

مستوى الفعل المولد: ما نفعله بكوننا نتكلم" ١

إذن هناك ثلاث مستويات تشكل لنا نظرية لسانيات الخطاب، مستوى الفعل اللاتعبري ومستوى فعل القول ومستوى الفعل المولد، والتي نستشف من خلالها أن اللسانيات تستحضر الكلام من الحدث والخطاب، ويتضح ذلك جليا من خلال الخطاطة التالية:



والخطاب يولد داخل الحوار مثلما تولد إجابته الحيوية، ويتكون داخل فعل متبادل مع كلمة أخرى، بداخل الموضوع، فالخطاب يحور موضوعه بفضل الحوار "هذا لأن الصوغ الحوارية الداخلي للخطاب يجد تعبيره داخل سلسلة من خصائص الدلالة والتركيب والتأليف لم تدرسها مطلقا الألسنية والأسلوبية إلى يومنا هذا"

ومنه يمكن القول إن مفهوم الخطاب نشأ داخل الحوارات التي لم تكن، لا للسانيات ولا للأسلوبية، اليد في تشكيله، وهو ما أشرنا له سابقا عند الدارسين العرب الذين عرفوا الخطاب انطلاقا من فعل التخاطب.

وإذا ما ربطنا هذه الحوارات بالحدث الذي جاءت به لسانيات الخطاب، سنجد أن كليهما يصفان الخطاب باعتباره فعلا Acte أو فاعلا Actant ففي "السميانيات، ومع التحليل البنوي، يسمى المصطلح (فاعل) مختلف الشخصيات المساهمة في الحدث ويمكن النظر إليها من مستويات مختلفة: مستوى سطحي ومستوى عميق وكل مستوى من هذين المستويين ينطوي على خصائص تركيبية تشكل بنية الخطاب.

وهذا ما نجده في نظرية "أوستين و سورل Speech Act "المتعلقة بكيفية إنجاز الأشياء بالكلام وهي نظرية تعنى باكتشاف نوع خاص من الملفوظات (الملفوظات الإنجازية)، التي أثر العديد من الدارسين استعمال عبارات من نوع:

- أعمال الخطاب acte du discours
- أعمال القول acte de paroles

ومنه أتى الحديث عن (Acte du discours) أعمال الخطاب، أو (Acte de paroles) أعمال القول، وهو ما يفضلهُ مؤلفون آخرون.

ذلك لأن الخطاب مفهوم زُبقي تقود الدارسة فيه إلى قضايا جديدة تظل في استمرار دائم علينا أن اكتشفها .

وقد استعمل مفهوم الخطاب في الأدبيات الحديثة لأول مرة مع (هايمز) Hymese إذ أُطلق على أحد المفهومين:

الأول: "أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصدا معينا "٣ وهو ما جاء عند العرب قديما في صيغة المخاطب والمخاطبة اللذين يوجه إليهما المتكلم الحديث بغية إفهامهم معنى ما. الثاني: "الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة".

ويعتبر الباحث "قيوم" من الدارسين الغربيين الذين اشتغلوا على مفهوم الخطاب بمعناه الأول، حيث انطلق من الثنائية التي أصبحت معهودة منذ "سوسير Ferdinand de SAUSSURE" اللغة والكلام et parole longe ، إذ فضل استعمال كلمة (discours) عوض " (parole) ذلك ليؤكد على ما يكتسبه الإنجاز اللغوي من أوجه ربما لا يحويها لفظ كلام مباشر، مثل: الوجه الكتابي – الحركات الجسدية – السياق" وهكذا نتفق مع من يقول بأن اللغة موجودة بالقوة، في حين أن الخطاب هو الذي يوجد بها بالفعل. "بمعنى آخر يحدد (بنفست) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا بأنه كل تلفظ يفترض متكلمًا ومستمعًا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما."

أما من ناحية اعتبار الخطاب مفهومًا يتجاوز الجملة، فهو الغالب على جل الدراسات الحديثة، والتي تتجسد من خلالها تلك العلاقة الرابطة بين الخطاب والسياق واللغة في إطار الاستعمال، إذ تمنح المرسل مجموعة من الامتيازات لتحقيق أهدافه، وهو ما سبقت الإشارة له من قبل (أوستين و سورل) في نظريتهما فعل الكلام Speech Act التي تبرز العلاقة المتبادلة بين نظام اللغة و سياق استعماله، مع التركيز على المرسل وكيفية اغتنامه كافة المستويات اللغوية بما يفرضه السياق، مثل المستوى الفونولوجي بتوظيف التنعيم، والنظم التركيبي، وإنجاز الأفعال اللغوية .

وهو ما نلتمسه عند الباحثين "باتريك شارودو- دومينيك منغون- Patrick Charaudeau" Dominique Maingueneau في معجمهما "معجم تحليل الخطاب Dictionnaire d'Analyse du Discours" إذ يشير إلى أن الخطاب شكل من أشكال الفعل، وأنه لا انفصال له عن السياق، وهذا ما جاء به "ميخائيل باختين" حين قال "إن الخطاب يعيش خارج ذاته، داخل تثبيت حي لموضوعه، وإذا ابتعدنا كلية عن ذلك التثبيت، فلن يبقى لنا فوق الأذرع سوى جثة الخطاب العارية التي لن تعلمنا شيئا عن وضعه الاجتماعي ولا عن مصائره"

والمقصود هنا بالموضوع هو السياق الذي يثبت لنا الخطاب ويوجهه، ذلك لأن كل خطاب يوجد خارج موضوعه (سياقه) يخرج من دائرة الخطاب ولا يمكن أن يكون إلا قولاً.

والمتلقي حاضر بحضور فعل الخطاب فهو جزء منه، ذلك إن لم نقل أحد مرتكزاته الأساسية، التي لا يمكن للخطاب أن يتم دونه، وقد اهتم العرب بالمتلقي قديما كما اهتموا بالخطاب، إلا أن الجانب التنتظيري كان غائبا عنهم ذلك لاشتغالهم بالجانب التطبيقي على الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف، وهنا أحب أن أشير إلى أنني لا أحاول أن ألتمس وجود نظرية التلقي في تراثنا بدعوى سبق الريادة، ولكن النظرة الموضوعية إلى ما كتبه علماؤنا العرب عندما بحثوا في أنواع الخطابات سواء منها الشعرية أو النثرية، اتضح أنهم عرفوا هذه النظرية وكانت تطرح في علوم البلاغة كـ "البيان والتبيين" للجاحظ، "عيار الشعر" لابن طباطبا، و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، و"مناهج البلاغة" لحازم القرطاجني، ودراسات أخرى، وحتى لا يكون الكلام فضفاضا أستحضر قول عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ذلك حين حديثه عن الفصاحة إذ يقول: إن "التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء موضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهارا على الشبهة واستبانة للدليل." فعن تحليل ما ورد عن الجرجاني سنجد أن كل العلوم التي كانت عند العرب تهدف بالأساس إلى عملية الإقناع وإزالة اللبس عن الكلام في محاولة للإشارة إلى المكانة التي تخص المتلقي.

كما نجد أن الاهتمام بالمتلقي حاضر كذلك في علوم النحو، خاصة في الحديث عن المخاطب والمخاطب وهما طرفي الرسالة التواصلية، "إذ يجد المرء، في أي مسارٍ تواصلٍ، باتا أو (مرسلاً)، ورسالة، ومرسلاً إليه، (أو متلقياً)، وغالباً يتجلى البات والمرسل إليه نحوياً، عبر الرسالة"

بالاستناد إلى هذا يمكن نخلص إلى أن الاهتمام بالمتلقي حاضر في الثقافة العرب بشتى أنواعه، لكن ليس بنفس المفاهيم والمصطلحات النظرية التي جاءت بها مدرسة كونستونز الألمانية؛ وذلك راجع إلى كون العرب اتجهوا إلى الاهتمام بالجانب التطبيقي على حساب الجانب التنظيري.

وفي النظريات الحديثة، خاصة تلك الغربية نجد؛ الجانب التنظيري في هذا المجال تحت اسم "نظرية التلقي" أو "جماليات التلقي"، والتي أتت بعد البنيوية التي كانت تقتل القارئ والمؤلف معا ليبقى أمامها النص ولا شيء غير النص، وسرعان ما حلت مدرسة "كونستونز الألمانية" التي ستنتقد بشكل كبير إلى البنيوي.

والحديث عن المتلقي وجمالية التلقي خاصة "بمفهومها الحديث يضعنا وجها لوجه أمام إنجازات الرائد الكونستانسي "هانز روبرت ياوس Hans Robert Jauss" صاحب هذا المفهوم،...فقد كان اهتمام ياوس يتوجه أساساً إلى تاريخ الأدب" هذا بالإضافة إلى أنه بدأ بنقد الاتجاهات الشائعة كالبنيوية، لدراسة تاريخ الأدب والتماس بديل لها، من خلال المزج بين مزايا الماركسية والشكلانية ليخرج من هذه الثنائية بما سماه "جمالية التلقي"، وهي نظرية تتجه إلى ذلك التفاعل الخطابي بين المؤلف والمتلقي، إذ أن هذا الأخير أصبح يتجاوز كونه مستقبلاً أو متلقياً سلبياً للرسالة إلى المشاركة في العملية الإبداعية من خلال إعادة نسج خيوطها وفي عمليات إنتاج الخطابات بصفة عامة، فالقارئ اليوم لا يقرأ بهدف المتعة فقط كما عهدناه في الكتابات الكلاسيكية، بل أصبح يبحث عن مفتاح اللعبة الإبداعية، وعن جماليات الخطاب لإنتاج خطاب موازي له، والذي لا يكون إلا بحوزة المبدع كما يعتقد، ليقتمح بوابة هذا العمل المتلقي وهو موقن أن المفتاح في يد صاحبه.

ومنه فنقطة "البدء في نظرية" فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser " هي تلك العلاقة الديالكتيكية التي تجمع بين النص والقارئ وتقوم على جدلية التفاعل بينهما "

ويمكن القول بأن "إيزر" يتحدث عن تلك العلاقة التي تربط النص بالقارئ أو المتلقي حين وصفها بالديالكتيكية، كما أن هذه العلاقة تحدث عنها "رومان انجاردان Roman Ingarden" حين أقر بأن "العمل الأدبي يمنحنا ببساطة (مظاهر تخطيطية) sechematize d Aspects هذه المظاهر هي التي تجعل القارئ على علاقة وثيقة بالعمل الأدبي، ويمكن من خلالها إنتاج الموضوع الجمالي Asthetic object، وإيزر منذ البداية يؤكد على أنه لا يجب أن نصنع في الاعتبار النص المقدم لنا فقط بل يجب أن نهتم كذلك بالأفعال المصاحبة للتلقي، ولهذا وضعنا النص في مركز الاهتمام هو والأفعال المتضمنة داخل الاستجابة لهذا النص"

منه نستنتج أن العمل الأدبي يحتوي على قطبين وهما:

القطب الفني (Artistic pole)
"النص".

القطب الجمالي (Aesthetic pole)
"القارئ"

فمن خلال هذه الخطاطة التي مثلنا بها للقطبين النص والمتلقي، تبرز تلك العلاقة الجدلية أو الديالكتيكية التي تحدث عنها إيزر، كما تبرز لنا كيف يعمل القارئ على إنتاج المعنى.

كما أن تصورا كهذا للظاهرة الأدبية يتأسس بشكل أساسي على ما يسميه "إيزر" بـ "أفق الانتظار" Erwartungs horizon الجمهور القارئ، وهو التصور الذي يحتل مكانة هامة في أعمال كارل بوبر Karl Popper، والذي وجد قبل ذلك عند هايدجر Heidegger وهوسيل Husserl وكادامير Gadamer، وهم ثلاثة من كبار المفكرين (بالنسبة للمنظر الألماني) "إلا أن ياوس يستخدم مصطلح آخر سماه "أفق التوقعات Horizon of Expectations محددًا به مجموعة من المعايير الثقافية والطروحات والمقاييس التي تشكل الطريقة التي يفهم بها القراء ويحكمون من خلالها على الخطابات

المتنوعة في مختلف الأزمنة . " والمقصود بأفق التوقع عند يابوس " ما يتوقعه المؤلف من القارئ في إدراك عمله "

من خلال هذا نستشف أن المهمة الأولى لجماليات التلقي تأسست أساساً على تشكيل أفق الانتظار في الخطاب، وهنا سنجد فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser في كتابه " فعل القراءة نظرية جمالية التجارب (في الأدب) " يطلق على الخطاب والقارئ مفهومين جديدين يشكلان قطبان وهما: القطب الفني والقطب الجمالي .

هنا تكمل أهمية المتلقي الذي يعمل على كشفه عن نوايا المخاطب، ولا يمكن للمتلقي أن يكشف عن نوايا المخاطب، إلا بتفاعله مع الخطاب من خلال تلك المعرفة القبلية التي ينطلق منها لتحليل خطابه، إذ أن " النص لا يجاوز ذاته إلا من خلال وبواسطة القارئ، هذا يعني أن القارئ يؤسس أيضاً وهماً ما " . ومنه يتبين أن المتلقي حين يتفاعل مع الخطاب ينشأ وعياً خاصاً به، يتفق فيه مع الخطاب أو يخالفه، ذلك ما يكسبه قدرة على الوصول إلى مستوى مضايقة المخاطب من خلال تأويل خطابه ومحاورته للكشف عن أسرارته .

والتأويل يدفعنا إلى الحديث عن مفهوم آخر في نظرية التلقي، وهو مفهوم " المسافة " التي تعتبر شرطاً للتأويل ومكوناً رئيسياً للوجود من أجل النص، أي للإصغاء لما يقوله النص " ذلك لأن المسافة هي التي تسمح بتعدد القراءات، ومنه التأويل المتعدد الأبعاد .

ويمكن أن نشير إلى المسافة باعتبارها ذلك " الفرق بين كتابة المؤلف وأفق توقع القارئ، بمعنى أنها المسافة الفاصلة بين التوقع الموجود لدى القارئ والعمل الجديد " .

هكذا نستشف أن المتلقي حين يتلقى الخطاب، فهو يوظف مجموعة من الخصائص التي تجعله مشاركاً فيه، وهي خصائص عرفت في أعمال تطبيقية لدارسين عرب، من خلال أفق التوقع الذي يتمثل في مكتسبات القارئ المعرفية هذه المكتسبات التي تمكن القارئ من تأويل النص والمرور عن طريق الظاهر الحرفي إلى الباطن الإشاري، لكن لا يمكن لذلك أن يحصل إلا من خلال مجموعة من الشروط ترتبط بما يسمى " الهيرمينوطيقا " هذا بالإضافة إلى ما يطلق عليه بجماليات الفجوات أو الفضاءات البيضاء التي يتركها المخاطب، وهي فراغات لا توجد بشكل اعتباطي، " فكل جملة تمثل مقدمة للجملة التالية وتسلسل الجمل يحاصر بمجموعة من الفجوات غير المتوقعة، والتي يقوم القارئ بملئها مستعيناً بمخيلته " هذه الفجوات أو ما يسمى بجماليات الفجوة، يتعين على المتلقي الفطن تأويلها ليصل إلى مستوى الإدراك الجمالي للخطاب، الذي يسمح له بإعادة إنتاج الخطاب وفقاً لطريقته .

الهوامش:

- ١- " ميخائيل باختين " الخطاب الروائي " ترجمة " محمد برادة " دار الفكر للدراسة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٧ .
- ٢- " بول ريكول " من النص إلى الفعل " أبحاث التأويل ترجمة " محمد برادة " حسان بورقية الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى ٢٠٠١ م

- ٣- "باتريك شارودو - دومينيك منغنو" معجم تحايل الخطاب، ترجمة: "عبد القادر المهيري- حمادي صمود" مراجعة صلاح الدين الشريف دار النشر سيناترا المركز الوطني للترجمة تونس ٢٠٠٨ سلسلة اللسان الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- ٤- أحمد المتوكل "الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفية و البنية والنمط، منشورات الاختلاف الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- ٥- عبد الهادي بن ظافر الشهري "استراتيجيات الخطاب" مقارنة لغوية تداولية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ دار الكتب الوطنية، توزيع دار أوبا للكتابة والنشر.
- ٦- "محمود طافي" "الجدول في إعراب القرآن وصرفه و بيانه مع فوائد نحوية هامة" الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م دار الرشيد دمشق المجلد الثاني عشر الجزء الثالث والعشرون.
- ٧- "العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري" "تفسير الكشف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقوال في وجوه التأويل" تحقيق وتعليق و دراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م الناشر مكتبة العبيكان الرياض، الجزء الخامس.
- ٨- " د. سعيد بنكراد" شخصيات النص السردي -البناء الثقافي سلسلة دراسات وأبحاث ١ ، ١٩٩٤ جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس.
- ٩- والاس مارتن "نظريات السرد الحديثة" ترجمة حياة جاسم محمد طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨.
- ١٠- رولان بارت - ريمون ماهيو- ترفيطان تودوروف- ميشال أوتن - فرناند هالين - فرانك شويروجن " نظرية القراءة (من البنيوية إلى جمالية التلقي) ترجمة د. عبد الرحمن بو علي ١٩٩٥ دار نشر الجسور، ٤٠ شارع رمضان الكاظمي -وجدة- الطبعة الأولى ١٩٩٥.
- ١١- "رولان بارت" الدرجة الصفر للكتابة ترجمة محمد برادة دار الطليعة للطباعة و النشر الطبعة الأولى ١٩٨٠.
- ١٢- "أحمد فرشوخ" جمالية النص الروائي مقارنة تحليلية لرواية "لعبة النسيان" دار الأمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٧-١٩٩٦.
- ١٣- "فولفغانغ إيزر" فعل القراءة نظرية جمالية التجربة (في الأدب) ترجمة: د حميد لحمداني/ د الجلاي الكدية نشر وتوزيع مطبعة النجاح الجديدة - البيضاء.
- ١٤- "عبد القاهر الجرجاني" "دلائل الإعجاز في علم المعاني" دار الكاتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٧٧م.
- ١٥- "أمبرتو إيكو" القارئ في الحكاية (التعاوض التأويلي- في النصوص الحكائية) ترجمة: أنطوان أبو زيد، الناشر: المركز الثقافي العربي الطبعة، الأولى: ١٩٩٦.
- ١٦- "سامي إسماعيل" جماليات التلقي (دراسة في نظرية التلقي عند هانز روبرت و فولفغانغ إيزر) دار النشر: المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة: الأولى _ القاهرة ٢٠٠٢.
- ١٧- "حسن بن حسن" النظرية التأويلية عند ريكور نشر: ج.ج.تنسيقت الطبعة: الأولى ١٩٩٢.
- ١٨- "أبو أحمد حامد" الخطاب والقارئ نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة دار النشر الرياض , مؤسسة الإمامة ، ١٩٩٧.
- ١٩-